

الباب الثامن

في ترجمة شيخه في الطريق وهو الشيخ الامام العالم العلامة المهام العارف الكبير المحقق الفرد الشهير بقية السلف وحجة الله على الخلف سيدي محمد بن المفضل بن ابراهيم وبهذا عرفت عائلته اولاد ابن ابراهيم ولذلك يكتب بالالف ولد رضى الله عنه بفاس وحفظ القرآن العظيم على كبر لانه لم يتوجه لحفظه إلا بعد البلوغ ثم شرع في طلب العلم واعتنى بحفظ المتون فحفظ مختصر خليل وتحفة ابن عاصم والفيء ابن مالك والأجرومية وأخذ العلم عن جماعة علماء فاس في وقته ثم بعد الانتهاء من الطلب اشتغل بالتدريس في جامع القرويين نحو أربعة أعوام ثم انتسب ودخل في طريق أهل الله فسلكتها على قدم التجريد والمجاهدة التي انقطع نظيرها منذ قرون وكان السبب في أخذه الطريق رفيقه في الطاب الفقيه الامام العلامة الشريف أبو العباس سيدي احمد ابن الخياط فانه أخذ عن الشيخ العارف بالله سيدي عبد الواحد بناني ثم دماه إلى الأخذ عنه ففعل وتلقى منه ورد الطريقة الشاذلية الدرقاوية فطلب منهما الشيخ الحضور مع الفقراء فجعلوا يترددان اليه وعليهما حلة العلماء المعروفة بفاس والمغرب فصار الشيخ مجردهما من ذلك بالتدريج الى أن خرجا عن جميع العوائد والمالوفات ثم لبسا الخشن من الثياب بل لبسا الخيش وشدوا في وسطهما الحبل وانقطعا للمجاهدة وخرق العوائد والذكر جهرا بشوارع فاس التي كانا يمران فيها بهيأة العلماء مع ارتكاب كل ما يشق على النفس وترك الشهوات وتعمير الوقت بأنواع الطاعات ومكثا على هذا الحال ست سنين مات في انتهائها شيخهما سيدي عبد الواحد بناني رضى الله عنه فجدا الأخذ عن أخيه في الشيخ سيدي الحاج أحمد ربيع بوصاية من شيخهما واستمرا معه على حالهما الى أن دخلا معه السجن في جماعة من الفقراء على يد قاضي فاس عمر الرنده وذلك بوصاية الفقيه الجامد محمد بن المدني كنون فانه هو الذي طلب من القاضي

ان يأمرهما بالرجوع الى التدريس والاشتغال بالعلم وترك ما هم فيه من التجريد
والمجاهدة للنفس وكان الباعث له على ذلك حقه على أبي العباس ابن الخياط
اذ كان من أنجب تلامذته وأزهمهم لدروسه وخدمته فلما دخل في الطريق
انقطع عن درسه فعاتبه يوما وقال له كنت أظن أنك لا تقدم على شيء كيفما
كان الا بعد مشورتى فاذا بك قدمت على هذا الأمر بغير علمي فلما لم ينجع
فيه عقابه وشى به الى القاضي فأمرهما بترك ذلك والرجوع الى تدريس العلم فامتنعا
فأدخلاه وشيخهما وجماعته الى السجن فمكثوا فيه ثلاثة أشهر هدى الله فيها
على يدهم من كان بالسجن من العصاة وتاركى الصلاة وحصل لهم خير جسيم
ولما مرت المدة المذكورة أخرجهم القاضي وألزم المذكورين بالرجوع الى
التدريس أيضا فاما ابن الخياط فرجع اليه بأمر شيخه وأما المترجم فاستمر على
تجربته وعبادته وانقطاعه فذهب الى بيت كان له بالمدرسة البوعنانية وأقبل
على العبادة وتفرغ لها فكان ورده عشرة أحزاب من القرآن العظيم خصه بها
شيخه مع ورد الطريقة ومكث خمس سنين صائما يفطر على تمر واحدة ويتسحر
بزبينة واحدة وكان الباعث له على ذلك انه كان ينسخ شرح الشماائل فمر
به حديث كل عمل ابن آدم له الا الصيام فهو لى وأنا أجزي به يترك طعامه
وشرا به من أجلى فقال كيف يقول الحق هذا وأنا أفطر فشرع في الصيام على
الصفة المذكورة وكان مع ذلك يذهب كل ليلة الى مراحيض المساجد
والمدارس فيغسلها وينظفها خدمة للمسلمين وهما لنفسه فآثر ذلك في جسده
فمرض مدة طويلة ذهبت فيها احدى عينيه وكان جنى ضربه فيها أيام غسله
لتلك المراحيض فلما شفاه الله تعالى باع ذلك البيت وجميع ما فيه من الكتب
وغيرها وقد وهب ثمن ذلك لشيخه ثم لزم باب الزاوية فكان ينام خارج
الباب مدة طويلة الى أن اذنت له زوجة الشيخ سيدي محمد ايوب صاحب
الزاوية المدفون بها وهو شيخ شيخه فدخلها وصمرها بذكر الله تعالى وتربية
الفقراء والمريدين الى ان مات بها .

ولما مات شيخه الثاني سيدى أحمد ربيع شرع الناس فى الاخذ عنه والانتساب إليه فاشتهر أمره بفاس وأقبل الناس عليه بالأخذ والتلقى مع المحبة والتعظيم والاعتقاد والاحترام وامتلات عليه الزاوية بالفقراء المتجردين من أهل فاس والغرباء فكان يريهم على طريقته فى الجد والاجتهاد والصيام والقيام ومحاربة الهوى ومخالفة النفس فى جميع ما تهوى حتى كان لا يتركهم يتناولون الطعام إلا بعد تغير طعمه وذهاب لذته بأن يتركه نحو اليومين والثلاثة وربما خلط لونين مختلفى الطعم والمذاق فى ءانية واحدة وأحيانا يغير الطعام بالماء حتى لا تبقى فيه لذة يتمتع بها وتدعو الى الاكثار منه وملء البطن الذى ما ملأ ابن ءادم وعاء شراً منه وغضب مرة من فقير له أتاه بطعام جيد فرده عليه وانتهره وقال له نحن عندكم بمنزلة المرحاض كل من عنده فضلة يصبها فيه .

وكانت كتبه التى يقرأها مع الفقراء كتاب تاج العروس والتنوير فى إسقاط التدبير للتاج ابن عطاء الله رضى الله عنه وكذلك حكمه بشرح ابن عجيبة وكان يقرأ لخاصته تفسير الجلالين كلما ختمه افتتحه مرة أخرى بقراءة تلميذه الشريف نور الدين .

وكان له اعتناء عظيم بذكر اسمه تعالى اللطيف مع الفقراء بالزاوية مساء بين العشاءين وبضريح مولانا إدريس رضى الله عنه صباحا وكان يقصد بذلك حصول اللطف بالأمة لما كان يتوقع من نزول البلاء وحلول النقم باحتلال الكفار الذى هو أعظم نقمة وشر بلية ورزية فكان ذلك حاصلًا مدة حياته ولم يقع الاحتلال إلا بعد وفاته .

وكان يلبس ثلاثة أثواب لا يزيد عليها صيفا وشتاء وهى قميص وقشابة صوف ومرفعة كان لبسها باذن شيخه وأخبره شيخه أنه أمر بها باذن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت لباسه الى أن لزم الفراش وانتقل بعده الى جوار ربه .

وكان في بداية مشيخته يلف على يده اليمنى خرقة من الخيش لئلا يصيب يده شفتا من يقبلها من المردان .

وكان في آخر أيامه لا يتناول من الطعام الا شربة لبن في الصباح وأخرى في المساء وكان لا ينام الليل أصلاً بل يستغرقه بالصلاة وذكر اسم الله اللطيف ولم يتزوج قط ولا مالت نفسه اليه ولا إلى غيره من الشهوات وقد عرض عليه مرة بعض الوجهاء والأعيان أن يزوجه أو يشتري له جاريتين ويسكنه داراً وينفق عليه الى أن يموت فامتنع وقال انى بعت نفسى لله تعالى فلم يبق لى فيها رجوع .

وكان عظيم الهيبة شديد الشكيمة لا يستطيع أحد مواجهته بخلاف ما هو فيه من الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى والاعراض عن الدنيا وما يؤول اليها حتى إن من عرض عليه مسألة الزواج وهو من أكابر العلماء الأشراف أعيان أهل المغرب لم يستطع مواجهته بذلك وانما راسله به مع تلميذه الشريف نور الدين وكان يخدمه ويدخل عليه ويدكر عنده بأمره ويقراً عليه الكتب التي يريد سماعها .

وقد حدثنى أنه خدمه ثمان سنين فما رآه ضحك فيها وانبسط إلا مرتين إحداهما أنه كان بيت بعض الأخوان فسأله هل عندك كتاب قال نعم عندى المستطرف فأتاه به فدفعه إلى مولانا الشيخ الوالد وقال افتحه فما وقع بصرك عليه فاقرأه ففعل فوافق الكتابة فى الفالودج فصار يقرأ وهو يضحك وحصل له سرور وانبساط وقال ما نحن إلا بشر ومرة أخرى فى بيت بعض الفقراء أيضاً قال وما عداهما لم أره ضاحكاً قط فى خلال هذه المدة .

وكان يحب الخمول والتواضع والسكون تحت مجارى الأقدار فلا يتظاهر بكرامة ولا يفوه بدعوى إلا إذا غلبه الحال وغاب عن حسه وأظهر الله على يديه ما لا اختيار له فيه كما حدثنى الشريف المذكور وغيره قالوا كان الشيخ

أو اخر عمره في غرفته بالزاوية وحده فنادى بأعلى صوته يا نور الدين فلما دخل عليه وجده في حال عظيمة فقال له اقاب الاعلى أسفل والأسفل أعلى ولم يزد على ذلك ثم رجع إلى حسه وبعد هذه الواقعة صار يظهر انعكاس الأحوال في الدنيا وانقلبت وتبدلت إلى أن صار الأعلى أسفل والأسفل أعلى ووصل إلى ما هو عليه الآن نسأل الله اللطف والعافية بمنه وفضله وجوده ورحمته الواسعة وشفاعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان في اخر عمره أقعد فكان إذا اضطجع لا يستطيع الجلوس بنفسه بل يجلسه بعض الفقراء الملازمين لخدمته ولا يجلسه إلا بتعب لأنه كان بادنا عظيم الجثة ومع ذلك فكان إذا أخذ الحال يجلس وحده ويأخذ مخدة عظيمة لا يستطيع حملها إلا الصحيح القوى فيصير يشير بها بيديه مرارا كأنه يريد أن يضرب بها ثم يردّها إليه مراراً وأخيراً يرمى بها أمامه إلى آخر الغرفة ثم يزحف إليها ويرجع إلى محله يفعل كذلك مراراً إلى أن يذهب عنه الحال أو يدخل عليه الخادم فيصحو ويرجع إلى حاله وفي يوم دخل عليه بعض الفقراء وهو كذلك فقال له مالك يا سيدى فقال لاشيء غير أنى كنت مع ابن الصديق بطنجة تقضى بعض المثارب .

وكان معتقداً محبوباً من الخاصة والعامة يبالغ الكل في تعظيمه والثناء عليه قد اجتمعت الالسن على ذلك من غير منازع مع نفوره من الناس واعراضه عنهم وفراره من مخالطتهم وكان الكبراء من أهل فاس أعيانها وعلماؤها وشيوخها يقصدونه الزيارة والتبرك فكان يقابلهم تارة ويردّهم أخرى فيجلسون بالزاوية أمام غرفته وهم يسمعون كلامه فلا مجترىء أحد منهم على الدخول عليه ثم لا يحصل لهم تأثر ولا نفور من ذلك بل يقابلونه بالرضى والتسليم ويعودون لزيارته وقد يتردد الواحد منهم مرارا متكررة فلا يقابله في شيء منها وهو يعيد الكرة إلى أن يسغفه بمرغوبه وكثيراً ما كان يفعل هذا مع أهل الظهور والجاه من العلماء والأعيان

يريد ان يصرفهم بذلك عنه فلا ينصرفون .
 وابتلى باخر عمره بالمرض المزمن فأقعد وأضر وذهبت عينه الاخرى
 واستمر ملقى على قفاه مدة طويلة حتى سكنت الفيران تحت فراشه وهو في
 كل ذلك صابر محتسب راض بحكم مولاه بل غائب عن حسه بحلاوة مشاهدته
 إلى أن انتقل إلى جواره ومحل رضوانه يوم الخميس فاتح رجب سنة ست
 وعشرين وثمانمائة وألف ودفن بالزاوية المذكورة رحمه الله تعالى ورضى عنه
 وعنايه ونفعنا بحبته وبركاته آمين .

فصل

أما الشيخان اللذان أخذ عنهما فالأول هو الشيخ العارف المحقق المرشد
 أبو محمد سيدي عبد الواحد بن بدوي بناني ولد بفاس وكان في بدايته مشغولاً
 بالتجارة فحفته العناية الالهية وجذبه إلى طريق أهل الله فدخل فيها على يد
 شيخه العارف سيدي محمد بن العالی أيوب ورافقه في ذلك شقيقه فحصل لها
 بعد الأخذ نفور شديد من الدنيا وإقبال عظيم على الله تعالى وفنيا في محبة
 شيخهما وخطر ببالهما ذات ليلة أن يخرجاه عن جميع ما بيدهما من الدنيا
 ثم عزموا عليه وخافا من تغيير ذلك الوارد فأسرعا بالليل إلى شيخهما وخرجا
 له عما يمتلكان فنالا مرادهما من الله تعالى وحصل للمترجم الفتح الالهي
 والفناء في الذات العلية وصار من جلة أصحاب شيخه بل كان هو الوارث
 لمقامه وحاله فلما توفي شيخه ظهر هو بمظهره وانتصب في محله وانجمع عليه
 الفقراء فصار يذكروهم ويذكروهم .

وكان له دكان بسوق العطارين يبيع فيه الجواهر والمرجان والطيب
 ونحوه في حال شيخته وتربيته للريدين قيناً بالشريمة وستراً للحال وتعففاً
 عن الخلق فكان بعض الجهلة يظعن في مشيخته من أجل ذلك حسداً وجهلاً
 كما هي سنة الله تعالى في خلقه ولا سيما مع أوليائه وأصفيائه .

وحدث تلميذه المترجم قبله سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه قال سمعته يقول رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى من رآك فقد رآنى ومن قبل يدك فقد قبل يدى وكان تلامذته والعارفون به يشنون عليه كثيراً ويصفونه بعلو المقام فى المعرفة ورسوخ القدم فى الولاية ويدل لذلك قصيدته التائية التى أنشأها وهو أمدى لم يحضر مجلساً من العلم وفيها يصف نفسه بالمعرفة ويذكر ما حصل له من الفناء وهى قوله :

ولما فنى عنى فنائى فلم ازل	وأشاهد معنى الحق فى كل وجهة
وزال وجودى عن وجودى وهل لمن	فنى عن فنا أهل الفناء من بقية
ومذ نظرت عينى الوجود توهما	شهدت بعين الفكر سر حقيقتى
وكنت رهينا فى سجون عوالمى	فصرت خبيراً بالعلوم الغريبة
وأخبرنى عنى غرامى بأننى	غريق بحار الوصل فى عين وحدتى
وسرى روى عنى وكنت حديثه	وبالحق حققت معالم جلتي
وأنشقت من روحى نسيم حقائقى	ومتعت طرفى فى محاسن بهجتى
وخمرى بدا منى وكنت ختامه	وأرشف من ثغر الكؤوس مدامتى
وعربت من سكرى هياماً لأننى	شهدت بهائى فى صفاء أنيتى
وخمرنى خمرى وراح براحتى	وصرفى ومزجى مع تهتك نشوتى
وسكرى وصحوى والفناء مع البقا	وشربى وربى واحتفالى برؤيتى
ومنها بدا كلى وبعضى وجلتى	وحسى ومعنائى وجمى وفرقتى
وراحى وربحانى وروحى وراحتى	ونفسى وأنفاسى وابى ومهجتى
شربت صفاها من أهيل مودتى	قديماً فصار الشرب دينى وملتى
وغيبنى عنى شهودى لحسنها	وشدة أفراحتى بوصل الأحبة
ولاح لسرى من معانى جمالها	فعاينتها عينى وبعضى وجلتى
وهام لما قلبى وسرى بها اهتدى	إليها وقرت بالمحاسن مقلتى
وصرت محل السر منها بسرها	وصرت بها مرا بغير أنية

وبجري در ليس يدرك وصفه
 وخيمت في برى وطاب لى المنا
 وفرقت جمعى واستبانى معالى
 فيها أنا ما بين البحور وديعة
 ولى فى الهوى علم توضع نشره
 أبيع لى التعبير فى مذهب الهوى
 فلا وصل الامن تعطف وصلها
 وان قصدت جادت ببعض جمالها
 فان شئت أن تحظى بظلمة حسنها
 وكن ذليلاً واصبر على ألم الهوى
 وجرّد سيوف العزم فى طلب اللقا
 وحي حى الخمار وانزل بحيه
 ولاحظ رضاه فى المهمات كلها
 لكى تسقى من خمر الوصال صفاه
 وتفتنى فناء فى فناء عن الفنا
 وتحبى حياة لا ترى الموت بعدها
 هذبتنا لمن أضحى يراها بطرفها
 وطاينها عيناً وغيراً ولا سوى
 وصار بها يدعو العباد لربهم
 مدام تسلى الهم وهى بدنّها
 مدام لها معنى لطيف لمن درى
 مدام بها هام الوجود بأسره
 مدام لها نور بهى لدى الورى
 تنوعت الأشياء منها فما أرى

وبرى زهر نشره طيب تفحتى
 وخاضت بحار العشق منى مطيتى
 وحددت طرفى لم أجد غير وحدتى
 أو فى حقوقاً حقها بالسوية
 وراق شرابى من كؤوس الأحبة
 ومن ذا من العشاق يبلغ رتبتي
 ولا قرب الا إن حبتك بنظرة
 وان أظهرت بعداً لتفقد الأذلة
 فخيم ولا تسأم بباب الأحبة
 وواصل شراب الحب فى كل لحظة
 ومزق ثياب الوهم عنك بسرعة
 وغفر خدودا فى ثراه بذلة
 وكن كثيراً ترجو الشفاء لعله
 وتجنّب ثمار القرب من كل ذرة
 وتبقى بها معنى بغير هوية
 منم فكر فى سرور ورفعة
 وهام بها فيها بغير معية
 ولائم غير فى ظهور الحقيقة
 ويسقى مدام الحب من غير راحة
 وتشفى سقيم القلب من كل علة
 قديم به قامت عوالم حكمة
 وهامت بها الأرواح لما تجلت
 يلوح سناها للقلوب السليمة
 سوى نورها الوضاح فى كل وجهة

تشمع منها الكل وهى حياته
 فريدة حسن لاح نور جمالها
 وغنت وقالت فى لذيذ خطابها
 تبدى جمالى فى المظاهر كلها
 وصنت جمالى بالجلال وإنما
 وأظهرت حتى لا يرى ظاهر معى
 ومن حسنها كل البدور استمدت
 فخرت لها الاشياء حين تبدت
 أنا الحسن والاحسان وصفى وشيمتى
 وأبدعت كل الكائنات بقدرتى
 جلالى جمالى والتستر حكمتى
 وأبظنت حقاً فى سرادق عزتى
 توفى رضى الله عنه سنة خمس وثمانين ومائتين وألف .

وأما الثانى فهو الشيخ العارف القدوة المسلك المرنى سيدى أحمد بن محمد
 ربيع الفامى من عائلة معروفة بناس أخذ عن العارف سيدى محمد بن العالى
 أيوب ثم بعده أم على أخيه فى الشيخ سيدى عبد الواحد بنانى ثم بعد وفاته
 ورث حاله وقام فى التربية والتسليك مقامه وكان ذلك بإشارة من شيخه فاجتمع
 عليه الفقراء من أصحاب شيخه وغيرهم وانفعوا به النفع العظيم وتخرجوا على
 يديه فى طريق الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى وكان مقلام الدنيا
 زاهداً فيها راغباً فيما عند الله يحترف حرفة اللجم فيصنعها ويبيعها ويأكل
 من كديده وكان مع فقره وقلة ذات يده كثير البر والصدقة والاكرام
 للفقراء يطعمهم وينفق عليهم ولا يأخذ من أحد منهم وكان ذا تواضع وسمت
 وأخلاق حسنة وهدى جميل وأوصاف حميدة محباً للعلماء وآل البيت شديد
 التعظيم لهم والادب معهم له يد فى التصوف ولسان فى المذاكرة كثير الذكر
 لا يكاد يفتقر لسانه عنه حتى عند النزح وخروج الروح يعيلى إلى الخمول ولا
 يظهر مظهر الفخر والدعوى وربما حدث بعض الخواص ببعض ما كوشف
 به كما أخبر تلميذه أبا العباس سيدى أحمد ابن الخياط أنه أتاه من الغيب أربعة
 رجال على شكل واحد وصورة واحدة لهم أنوار خارقة فملاًوا بيته نوراً
 وقالوا جئنا إليك لنزورك ونطلب منك صالح الداء وكان اسم أحدهم الطيب
 ابن الطيب

وأخبر مرة شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتاتى
 انه خرج مرة لجنائزة بعض الفقراء فلما سبوا عليه التراب كشف لى عنه
 فصرت أراه فجعلت أغمض عيني كي يحتجب عنى فلم يحتجب ترجمه شيخنا
 المذكور فى سلوة الاتقاس وذاكر أنه كان يعود أيام مرض موته فيجده فى
 غاية التيات واليقين وأنفاسه متصاعدة بالذكر قال ودخلت عليه مرة بعد
 ماسقط لسانه فصار يشير بسبابته كأنه يقول لا إله إلا الله قال وتوفى
 صبيحة يوم الاحد تاسع محرم سنة ثلاث وثلاثمائة وألف .